رسائل إلى طالب العلم

للشيخ عبد الله البخاري

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده تعالى ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (102) ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) ﴾ [النساء: ١]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71) ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]

فإن أصدق الحديث كتاب الله –تَعَالَى- وخير الهدي هدي محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- و شر الأمور محدثاتها وكل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة .

و بعد..

فإنّي أحمد الله – جَلَّ وَعَزّ- الذي هيّأ لنا ولكم هذا اللقاء في هذا البلد المبارك و لا شك في أن الرسائل التي أرغب في بعثها هي كثيرة ولكن حسبنا أن نذكر جملة منها لضيق الوقت وكما يقال **((حسبنا من السوار ما أحاط بالمعصم))** ويستدل الطالب بما سنذكره على غيرها و لعلّ الله -جَلَّ فِي عُلاه- أن يبارك لهذه الرسالة أو لبقيتها تتميما .

و ما سأذكره و أذكر به في رسائل عدة أو في نقاط عدة :

- **أولها**: الإخلاص لله –جَلَّ وَ عَلا -.
- **وثانيها**: تقوى الله -جَلَّ فِي عُلاه -

- ❖ **و ثالثها**: الحرص على تحصيل العلم النافع حفظًا و فهمًا.
- ❖ **و رابعها**: تحمل العلم النافع عن أهله.
- ❖ **و خامسها**:التفرغ في طلب العلم والصبر على تحمله .
- ❖ **وسادسها:** التدرج في طلب العلم واغتنام زهرة العمر.
- ❖ **و سابعها** : المحافظة على الوقت مع علو الهمة.
- ❖ **و ثامنها:** العمل بالعلم.
- ❖ **و تاسعها:** التقرب إلى الله -جَلَّ وَعَزّ- في الفرائض والإكثار من النوافل والفرار أو البعد عن المعاصي.

وبين يدي هذه المحاضرة أقول ابتداءا لطالب العلم الذي سلك هذا الطريق هنيئا هنيئا له أن سلك هذا الطريق واختار هذا الطريق -أعني طريق طلب العلم- إذ هو خير كله خير له في الأولى و الآخرة إن قام به العبد الطالب ،إن قام به العبد حقا صدقا ،ثم إن النصوص في فضل العلم كثيرة جدّا ولعلي أزف بعضا منها بين يدي هذه المحاضرة التذكيرية .

يقول الله -جَلَّ فِي عُلاه- ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** (113)﴾ [النساء: ١١٣]، يقول **الإمام ابن القيم** -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في مفتاح دار السعادة:"عدد سبحانه نعمه و فضله على رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ- وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم ".

وقال الله - جلَّ وَعَلا- : ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)**﴾ [العنكبوت: ٤٣]، يقول **الإمام ابن كثير** -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- : " أي ما يفهمها و يتدبرها إلا الراسخون فيه" ، ثم ساق وذكر **أن الإمام أبي حاتم** ساق بسنده إلى **عمر بن مرة** أنه قال : "ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني ذلك لأنني سمعت الله –عَزَّ وَجَل- يقول: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)**﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، ويقول الله - عَزَّ وَجَل- : ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4)**﴾ [المائدة: ٤] ، يقول **الإمام ابن القيم** في لفتة بديعة نفيسة تدل على فقه وعلو فهم عند هذه الآية قال -رَحِمَهُ اللهَ- :" إن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها و أباح صيد الكلب المعلم وهذا من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم و أما

الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم و فضله و لولا مزية العلم والتعليم وشرفه كان صيد الكلب المعلم و الجاهل سواء ".

وفي الصحيحين من حديث معاوية -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ- قال : **((من يرد الله به خيرا يفقه ه في الدين))**[1] ، يقول **الحافظ النووي**-رحمه الله- في شرحه لمسلم "فيه فضيلة العلم و التفقه في الدين و الحث عليه و سببه أنه قائد إلى تقوى الله -عَزَّ وَجَلَ- ".

وأخرج **الإمام أبو داوود** في سننه ، و**الترمذي** في جامعه ، و**ابن ماجة** في سننه ، و**أحمد** في المسند و**ابن حبان** في الصحيح وغيرهم من حديث **أبي الدرداء** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ- يقول: **((من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة و إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع و إن العالم ليستغفر له من في السموات و من في الأرض حتى الحيتان في الماء , و فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب و إن العلماء و رثت الأنبياء و إن الأنبياء لم يورثو دينارا و لا درهما و إنما و رثو العلم فمن أخذه أخذ بحظ و افر))**[2] ...حديث حسن

يقول **الإمام ابن القيم** في شرح نافع نفيس له عند هذا الحديث في **مفتاح دار السعادة** ، ونذكر الشاهد من كلامه -رَحِمَهُ الله-،قال:" الطريق التي يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق طلب العلم الموصلة إلى رضى الله -جَلَّ وَعَلا- ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا وتوقيرا و كراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه ، و هو يدل على المحبة والتعظيم ، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لأنه طالب لما به حياة العالم و نجاته ما هو حياته وحده" .

فبعد هذه التقدمة من نصوص الوحيين في منزلة العلم وفضله نسوق الكلام ونبدأ الكلام حول جمل من الرسائل .

***أول تلك الرسائل** أيها الإخوة كما قلنا: **الإخلاص** لله -جَلَّ وَعَلا- في هذه العبادة يقول الله -جَلَّ فِي عُلاه- ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)** ﴾ [البينة5] ، ويقول الله – عَزَّ وَجَلَ -﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الأنعام52] ، ويقول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

[1] رواه البخاري (71) ، ومسلم (1037).
[2] أبو داود (3641) ،والترمذي (2682) ،وابن ماجة (223) ،ومسند أحمد (8117) ،وابن حبان (84).

وآله وسلم- كما في الصحيحين من حديث **عمر بن الخطاب** - رَضِيَ اللهَ تَعَالَى عَنْهُ- **((إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى .....))**[1] .

وفي صحيح مسلم من حديث **أبي هريرة** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَ- أن النبي-عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام - ذكر أول من يقضى عليه من الناس يوم القيامة وفيه **((ورجل تعلم العلم وعلمه و قرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم و علمته وقرأت فيك القر آن قال كذبت و لكن تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل ،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار))**[2] نعوذ بالله من ذلك .

فهذه النصوص -أيّها الإخوة - وما جاء في معناها تدل دلالة ظاهرة بينة على وجوب الإخلاص لله -جَلَّ وَعَز - فيما يتعبد به المرء له -جل وعلا - وطلب العلم عبادة من أعظم العبادات لأنه قائد إلى تقوى الله -جَلَّ وَعَز- .

يقول **الحافظ الخطيب البغدادي** في الجامع: " يجب على طالب الحديث أن يخلص نيته في طلبه وأن يكون قصده بذلك وجه الله ثم أسند حديث **عمر** -رضي الله تعالى- عنه المتقدم ، وذكر بعده مسندا قول **إسرائيل بن يونس** لبعض من ارتحل إليه طالبا للعلم قال : "إن استطعتم ألا يكون أحد أسعد بما سمعتم منكم فافعلوا من طلب هذا العلم لله تعالى شرف و سعد في الدنيا و الآخرة و من لم يطلبه لله خسر الدنيا و الآخرة ".

يقول **الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي** -رَحِمَهُ الله- في فضل علم السّلف بعد أن ذكر العلم النافع ، قال:" ومن وقف على هذا و أخلص القصد فيه لوجه الله و استعان عليه أعانه وهداه و وفقه وسدده وفهمه وألهمه وحينئذ يثمر العلم له ثمرته الخاصة به ،وهي خشية الله -تَعَالَى- ،كما قال : - عَزَّ وَجَل - ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)** ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقال **ابن مسعود** : "كفى بخشية الله علما و كفى بالاغترار به جهلا " .انتهى كلامه -رَحِمَهُ الله- .

ويقول **العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي** -رَحِمَهُ الله- في رسالة أدب المعلم والمتعلم : "يتعين على أهل العلم من المعلمين والمتعلمين أن يجعلوا أساس أمرهم الذي يبنون عليه حركاتهم وسكناتهم الإخلاص الكامل والتقرب إلى الله بهذه العبادة التي هي أجل العبادات وأكملها و أنفعها و أعمها وأن يتفقدوا هذا الأصل الجليل -يعني الإخلاص- في كل دقيق وجليل فإن درسو ا أو دارسوا أو بحثوا أو ناظروا أو سمعوا أو استمعوا أو كتبوا أو حفظوا أو كرروا دروسهم الخاصة أو راجعوا عليها أو على غيرها الكتب الأخرى أ و جلسوا مجلس علم أ و نقلوا أقدامهم لمجالس

[1] البخاري (1) ، ومسلم (1907) .
[2] مسلم (1907).

العلم أو اشتروا كتبا أو ما يعين على العلم كان الإخلاص لله -جل وعلا- واحتساب أجره و ثوابه ملازما لهم في كل هذه الأحوال ليصير اشتغالهم كله قربة و طاعة وسيرا إلى الله وإلى كرامته وليتحققوا من قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ - أو بقوله -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام- **((من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة))**[1] ،فكل طريق حسي أو معنوي يسلكه أهل العلم يعين على العلم أو يحصله فإنّه داخل في هذا " .

ومن جميل ما أثر حثا وتحذيرا من طلب العلم لغير الله -جَلَّ وَعَزّ- م ،ا قاله **الإمام السني حماد بن سلمه** -رَحِمَهُ الله- فيما خرجه **ابن عبد البر** في جامع أهل العلم وفضله ، و**الخطيب** في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع أنه قال: "من طلب الحديث لغير الله مُكِر به " .

وقال **الإمام إبراهيم النَخعي** كما في السنن **للدارمي** : "من ابتغى شيئا من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه" .

وجاء في ترجمة **الإمام هشام بن عبد الله الدك تواني** ، قال **الذهبي** في الكاشف: " كان يطلب العلم لله " .

فالإخلاص منزلة عظيمة -أيّها الإخوة- وركن أساس في قبول العمل مع الإتباع لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ سَلَمَ - ، والإخلاص له يورث الفهم عن الله الإخلاص لله في هذه العبادة يورث الفهم عنه -جَلَّ وَعَزّ- ،فقد أخرج **الخطيب** في اقتضاء العلم العمل **عن أبي عبد الله الرهباني** أنه قال : " العلم موقوف على العمل والعمل موقوف على الإخلاص ، والإخلاص لله يورث الفهم عن الله –عَزَّ وَجَلَّ- " .

إذًا علمنا أهمية الإخلاص ووجوب العناية به في كل دقيق وجليل ، قال **الحافظ ابن الجوزي** -رَحِمَهُ الله- في صيد الخاطر: " من أصلح سريرته فاح عبير فضله وعبقت القلوب بنشر طيبه فالله الله في السرائر فإنّه لا ينفع مع فسادها صلاح الظاهر".

***الوصية الثانية أو الرسالة الثانية : تقوى الله - عَزَّ وَجَل -.**

هذه الكلمة العظيمة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة امن تحققها هي وصية الله -جَلَّ وَعَزّ- للأولين و لآخرين ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ**﴾ [النساء: ١٣١]، يقول **الإمام ابن القيم** -رَحِمَهُ الله- في رسالته التبوكية : " أمّا التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانا و احتسابا ، أمرا و نهيا ،فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده ويترك ما نهى الله -عز وجل- عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده ..... " ، إلى أن قال: "وكل عمل لا بد له من مبدأ وغاية فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان ،

[1] سبق تخريجه.

فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه أوغير ذلك بل لا بدّ أن يكون مبدأه محض الإيمان و غايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب .. " ، إلى أن قال بعد أن بيّن لك الحقيقة، قال: "ولا ريب أن هذا الاسم - لمن علم هذا المعنى و تحققه - اسم لجميع أصول الإيمان و فروعه" .

وهذا التحقيق الذي ذكره **الإمام ابن القيم** لا يمكن إلا أن يكون عن علم يهدي صاحبه وهو الذي أشار إليه بالإيمان أو الإيمان المحض و لهذا قال **الهيثمي** -رَحِمَهُ اللهَ- مؤكدا هذا المعنى حقيقتها متوقفة على العلم إذ الجاهل لا يعلم كيف يتقي من جانب الأمر ولا من جانب النهي -لا يعلم- قال:" وبهذا يظهر فضيلة العلم و تميزه عن سائر العبادات والأحوال والمقامات لتوفها جميعها عليه ،ومن ثم قال النبي -صلى الله عليه وآله سلم- **((من يرد الله به خيرا يفقه في الدين))**[1] .

والمتقي له صفات مذكورة في كتاب الله -جَلَّ وَعَزّ- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) ﴾ [البقرة: ٣]، والله - جَلَّ وَعَزّ - ذكر جملة من الصفات في كتابه لهؤلاء المتقين ، ومن ذلك أيضا قوله - جَلَّ وَعَزّ - ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) [الليل: ١٧ – ١٨] ، وقال - جلّ وّعَلا- ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) ، وقال **جل و عز** إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (55) ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥] ،و يقول - جلّ وّعَز - ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، و يقول -جلّا وّعَز- **أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٨]، ويقول - جلّ وّعَلا - ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾ [الحج: ٣٢] كل هؤلاء أو كل هذه الصفات مذكورة في كتاب الله جل و عز لكن تحتاج إلى تأمل و إلى تدبر .

والتقوى -أيّها الأحبة- على مراتب ليست على مرتبة واحدة لأن من قواعد أهل السنة واعتقادهم أن الإيمان يزيد و ينقص وهو رتب ، يقول **الإمام ابن القيم** في الفوائد: "التقوى ثلاث مراتب: إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات ،والثانية حميتها عن المكروهات ، والثالثة الحمية عن الفضول و ما لا يعني ، فالأول تعطي حياة القلب فالأول تعطي العبد حياته والثانية تفيد صحته و قوته و الثالثة تكسبه السرور و الفرح و البهجة فمن حقق هذه الرتب و هذه المراتب وأراد أن يصل إلى الرتبة الأولى فيحتاج إلى ماذا؟ إلى جاهد ومجاهدة -الرتبة الأولى- أي بمعنى أعلى تلك الدرجات و هي الدرجة الثالثة بدأ بالأولى ثم الثانية و أفضلها الثالثة أو أعلاها الثالثة ولذلك من أراد أن يحقق أعلى تلك المراتب فليجاهد نفسه على تحقيقها و ليحرص في الترقي والارتقاء لتحقيق التوحيد لله -جَلَّ وَعَزّ- و الإتباع لرسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ-

[1] سبق تخريجه.

يقول **الإمام ابن القيم** - رَحِمَهُ اللهُ- : " كلما اتقى العبد ربّه ارتقى إلى هداية أخرى فهو في مزيد هداية مادام في مزيد تقوى وكلّما فوت حظا من التقوى فاته حظه من الهداية بحسبه فكلما اتقى زاد هداه و كلما اهتدى زاد التقوى"، وإذا من أنفس الكلام وبديعه.

*** الرسالة الثالثة: -أيّها الأحبّة- الحرص على تحصيل العلم النافع حفظا و فهما.**

-يقول **الإمام الشافعي** -رَحِمَهُ اللهُ- في الرسالة :" الناس في طبقات العلم موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به فحق على طلبة العلم بلوغ الغاية جهدهم في الاستكثار من علمهم والصبر على كل عارض دون طلبه وإخلاص النية في استدرك علمه نصا واستنباطا والرغبة إلى الله في العون عليه فإنه لا يدرك خير إلا بعونه فإن من أدرك علما أحكام الله في كتابه نصا واستدلالا ووفقه الله للعمل بما عمل فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الريب ونورت في قلبه الحكمة واستوجب في الدين موضع الإمامة".

-يقول **الإمام الآجري** -رَحِمَهُ اللهُ- في أخلاق العلماء بعد أن ذكر حديث معاوية -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه- المتقدم:" فلما أراد الله تعالى بهم خيرا فقههم في دينه وعلمهم الكتاب والحكمة وصارو ا سراجا للعباد ومنارا للبلاد".

إذًا ما هو العلم النافع ؟

-علم الوحيين ،علم الكتاب السنّة ، يقول **الحافظ ابن رجب** في فضل علم الخلف ذكر الله -جَلّ وَعَزّ- في كتابه العلم في مقام المدح وهو العلم النافع وذكر العلم تارة في مقام الذم وهو العلم الذم لا ينفع ، ثم مثل أمثلة للقسم الأول وهو العلم النافع ذكر جملة من الآيات ومنها قول الله - جَلّا وَعَزّ - ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ﴾ [آل عمران: ١٨] قال :"هذا هو العلم النافع"، ثم ذكر أن من العلم النافع هو في أصله نافع لكن من يتحمل هذا العلم لم ينتفع بهذا العلم ، قال: "وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علما ولم ينفعهم علمهم فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به فذكر ومثل له بقوله -جلّ وَعَلا ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) ﴾ [الجمعة: ٥]، ثم قال: "وأمّا العلم الذي ذكره الله على وجه الذم قال فقوله في السحر ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]" ، ثم قال:" ولذلك جاءت السنّة بتقسيم العلم إلى قسمين:علم نافع وعلم غير نافع."

ثم مثل لذلك باستعاذة النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ- في الحديث الصحيح حديث زيد ابن أرقم أنه كان يقول -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام- في دعاءه **((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))**[1] ،قال:" فالعلم النافع من هذه العلوم كلها -إذا ما هو- قال ضبط الكتاب و السنّة وفهم معانيها والتقيد - وضع فوقها أو تحتها خطوطا - في ذلك بالمأثور عن الصحابة وتابعيهم في معاني القرآن والحديث ، وفي ما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك والاجتهاد في تمييز صحيحه من سقيمه أولا - أثبت العرش ثم انقش - ثم الاجتهاد في الوقوف على معانيه و تفهمه ثانيا وفي ذلك كفاية لمن عقل وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل " .

ولهذا ذكر **الإمام ابن القيم** -رَحِمَهُ الله- أن أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنّة والفهم عن الله وعن رسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل -هذه أع ىل الهمم – قال: " وأخس الهمم - أخس همم طلاب العلم - من قصر همته على تتبع شواذ المسائل و ما لم ينزل ولا هو واقع أو كانت همته منصرفة إلى معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس وليست له همة إلى معرفة الصحيح من ذلك من عدمه " ، ثم قال: "وقلَّ أن ينتفع أحد من هؤلاء بما يتعلم أو بما علم لأن همته كانت في أدنى الهمم ".

يقول **العلامة السعدي** - رَحِمَهُ اللهُ - في بهجة قلوب الأبرار شارحا قول النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ - **((احرص على ما ينفعك و استعن بالله))** [2] ،قال: " هذا كلام جامع نافع محتو على سعادة الدنيا والآخرة والأمور النافعة قسمان أمور دينية وأمور دنيوية ... " ، إلى أن قال : " فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين علم نافع وعمل صالح ، أما العلم النافع -ما هو ؟- قال: العلم النافع هو المزكي للقلوب و الأرواح المثمر لسعادة الدارين و هو ما جاء به الرسول - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ - من حديث و تفسير و فقه وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت و الوضع الذي فيه الإنسان".

- إذا هذا هو العلم النافع فإذا عرفت العلم النافع جاء الكلام عن الأمر الثاني المتعلق بالعلم النافع وهو قولنا حفظا و تفهما.

فاحفظ من هذا العلم النافع ما استطعت إلى ذلك سبيلا والنبي -عليه الصلاة والسلام - قد حث و رغب في الحفظ ، فقال -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - كما في الصحيحين **((فليبلغ الشاهد الغائب))**[3] ودعا لمن حفظ حديثه بالنضارة - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - في قوله **((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً**

---

[1] مسلم (2723) .
[2] مسلم (2667) .
[3] البخاري (1741)، ومسلم(1681).

سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ :إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ،وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ،وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ))[1] ، وفيه في بعض ألفاظه **((فأداها كما سمعها))**

جاء عند الإمام مسلم في الصحيح قول أبي زيد بن أخطب -رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْه- **((صلّى بنا رسول الله -صلى الله عليه و سلم- الفجر وصعد فخطبنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان و بما هو كائن فأعلمنا أحفظنا))** [2]،كما قلت رواه الإمام مسلم في الصحيح .

ومعلوم و لا يخفى عليكم أنّ أبا هريرة -رضي الله تعالى عنه- معدود في ماذا ؟ ويقال في ترجمته حافظ الصحابة ، وفي الصحيحين أنه قال عن نفسه "أنه يحفظ ما لا يحفظون" .

خرّج الخطيب -رحمه الله- في الكفاية بإسناد صحيح عن الحافظ مروان بن محمد الطاطري "ثلاثة لا يستغني عنها صاحب العلم ،الصدق و الحفظ وصحة الكتب ، فإن أخطأته واحدة لم تضره ، إن أخطئه الحفظ فرجع إلى كتب صحيحة لم يضره ذلك ولهذا قيل كما هو معلوم مشهور **((ليس العلم ما حواه القمطر إنما العلم ما حواه -ماذا؟- الصدر))**

ومعلوم ولا يخفى أن الضبط عند أهل العلم على نوعين:

- ضبط صدر.
- وضبط -ماذا؟- كتاب.

وكونهم يعتنون بالأول لا يعني أنهم يهملون الثاني فكانوا يعتنون بالأول و الثاني .

ممّا أثر عن السلف في هذا الباب ما جاء عن **الإمام الشعبي** -رَحِمَهُ الله- في ترجمته من السير وغيره،أنّ **أبا عبد الله الحاكم** ترجم له ، فقال:(سمع من ابن عمر ،وذكر جملة ، ثم قال: وكان حافظا و ما كتب شيئا قط) ،وقال **ابن شبرمة**: سمعت الشعبي -رحمه الله- يقول:" ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته ولا أحببت أن يعيده علي " ،من أول مرّة يحفظ .

هذا الكلام عن **الإمام الشعبي** يدلّ على ماذا ؟ حفظ وقاد - أليس كذلك ؟- ومع هذا لما طال به العمر نسي ، ولما سئل قال: "الأحاديث التي نسيتها لو حفظها طالب لكان عالما "،مقدار الذي نسي ،ولا شك أن الحفظ خوّان ، قال **الإمام علي بن المديني** "بلغنا أنّ إمامنا **أحمد بن حنبل** كان

[1] الترمذي (2658) ،وابن ماجة (230) ،و الدارمي (227) ،والمستدرك على الصحيحين(86/1) ،وأحمد (12937)
[2] مسلم (2894).

لا يحدث إلا من كتاب ولنا فيه أسوة حسنة "، مع أن **الإمام أحمد حافظ** وإمام **والإمام علي بن المديني** إمام ،ومع هذا يقول لنا في **الإمام أحمد** -ماذا ؟- أسوة حسنة.

وجاء أيضا في ترجمة **الإمام حمّاد بن زيد بن درهم** ،قال **العجلي** -رَحِمَهُ الله- (**حمّاد بن زيد** ثقة وحديثه أربعة آلاف حديث كان يحفظها ولم يكن له كتاب) .

وقال **ابن خراش**: " لم يخطئ **حمّاد بن زيد** في حديث قط ".

وقال **الذهبي** –رَحِمَهُ الله- في الكاشف : "كان يحفظ حديثه كالماء" ،يعني كشرب الماء.

هذا الحفظ لا يأتي هكذا ، لا بد له من آلات و سبق بيان الرسائل السابقة نعم ، بين لك جملة من آلاته **الحافظ العلامة العسكري** -رَحِمَهُ الله- في الحث على طلب العلم قال : " الحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية ، كثرة الدرس وإذا لم يكن درس لم يكن حفظ ، وطول المذاكرة ،وإذا لم تكن مذاكرة قلت منفعة الدرس "،ثم نقل عن **الإمام الزهري** أنه قال : "إنّ الرجل ليطلب العلم و قلبه شعب من الشعاب فما يلبث إلا أن يصير واديا لا يوضع فيه شيء إلا التهمه" .

قال معلقا **العسكري** مبيّنا معنى كلام **الإمام الزهري** :"يريد أن أول الحفظ شديد يشق على الإنسان ثم إذا اعتاد هذا سهل عليه" ،ثم أسند عن **الحارث بن أبي أسامة** أنّه قال: " كان العلماء يقولون: " كل وعاء أفرغت فيه شيئا فإنه يضيق إلا القلب فكلما أفرغ فيه اتسع " ، ثم قال-هو عن نفسه- **العسكري أبو هلال** قال: " وكان الحفظ يتعذر عليّ حين ابتدأت أرومه ثمّ عودت نفسي إلى أن حفظت قصيدة رأبة.

وقاسم الأعمال خال مختري في ليلة

قال : وكانت قريبة من 200 بيت ".

الحفظ -أيّها الإخوة- لابد أن يصحبه أمر مهم أو يسبقه أمر مهم نبه عليه **العلامة ابن جماعة** في تذكرة السامع قال : " أن يصحح الطالب ما يقرأه قبل أن يحفظه تصحيحا متقنا إمّا على الشيخ أو على من يعنيه، ثم يحفظه بعد ذلك حفظا محكما ثم يكرر عليه بعد حفظه تكرارا جيدا ، ثم يتعاهده في أوقات يقررها لتكرار مواضي ع ولا يحفظ شيئا قبل تصحيحه لأنه يقع في التصحيف و التحريف والعلم لا يأخذ من الكتب فإنه من أضر المفاسد " ،لأنّ الأصل أن يؤخذ العلم من أفواه الرجال كما قاله **الإمام الوليد بن مسلم** -رحمه الله- .

ثم بعد أن بينا الحفظ نتكلم عن الفهم وأهميته :

يقول **الإمام ابن القيم** -رَحِمَهُ الله- في إعلام الموقعين: "صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله -عَزَّ وَجَل- على العبد ،من أعظم نعمه التي أنعم بها على عبده بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما بل هما ساقا الإسلام و قيامه عليهما وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم وطريق الضالين الذين فسد ت فهومهم ويصير من المنعم

عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم وهم أهل الصراط المستقيم الذي أمرنا أن نسأل الله تعالى أن يهدينا صراطهم في كل -ماذا؟- في كل صلاة "، وقال في موطن آخر : "و تفاوت الأمّة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله ولولاه لكانت الأفهام متساوية -أليس كذلك ؟- ولو كانت الأفهام متساوية لتساوت أقدام العلماء في العلم ولمّا خص الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- سليمان بفهم الحكومة في الحرث وقد أثنى عليه وعلى داوود في العلم والحكم "، وقال أيضا في موطن آخر : "المقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم للنصوص وأنّ منهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره وأخص من هذا وألطف في الفهوم والمدارك مع هذا كله ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدرا زائدا على ذلك اللفظ بمفرده وهذا باب عجيب في فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم ، فإنّ الذهن قد لا يشعر بالارتباط بهذا و تعلقه به ".

وهنا قصة جميلة و هذا من باب الترويح نعم في الفهم قصة جميلة يرويها شيخ شيوخنا **الإمام العلامة الحبر محمد الأمين الشنقيطي** -رَحِمَهُ الله- في مقدمة الأضواء اسمع إلى هذه القصة قال: " جئت للشيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما كان يشرح و لكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت و قمت من عنده و أنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشكل -مازال الذي عنده بقي - وكان الوقت ظهرا فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتى العصر فلم أفرغ من حاجتي فعاودت حتى المغرب فلم أنتهي أيضا ،فأوقد لي خادمي أعوادا من الحطب أقرأ على ضوئها وواصلت المطاعة وأتناول الشاي الأخضر -هكذا يقول- كلما مللت أ و كسلت والخادم بجواري وقد الضوء حتى انبزغ الفجر -من الظهر حتى انبثق الفجر- وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام وإلى أن ارتفع النّهار وقد فرغت من درسي وزال عنّي لبسي و وجدتها هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم فتركت المطالعة و نمت وأوصيت خادمي ألا يوقظني لدرسي في ذلك اليوم اكتفاء بما حصلت عليه واستراحت من عناء سهر البارحة" انتهى كلامه -رَحِمَهَ الله-.

رأيتَ كيف هذه العناية في الفهم فمن حفظ فلا بد أن يفهم يعتني بالعلم النافع ، وعرفنا ما هو العلم النافع وعرفناه ويعتني بذلك فهما حفظا و فهما ،وننتقل إلى الرسالة التي تليها:

***الرسالة الرابعة:تحمل العلم النافع عن أهله:**

سالك هذا الطريق كما تقدم سالك لطريق الجنة كما أخبر النبي -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ- ولمّا كان الأمر كذلك وجب على المسلم ألا يعير هذا السمع كل من هب و درك ،لأن السّمع أمانة

وألا يأخذ العلم إلا عن الأكابر وأهل العلم المشهود لهم بالاستقامة والسلامة والنصح للأمّة فمن ترك هذا ضل و غوى .

في الصّحيحين أن النبي - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَمَ - قال: **((إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتو بغير علم فضلوا و أضلوا))**[1]، قال **القرطبي** -رَحِمَهُ الله- في المفهم: "هذا نص في أنّ رفع العلم لا يكون بمجرد مخوه من الصدور بل بموت العلماء و بقاء الجهال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم ويفتون بالجهل ويعلمونه فينتشر الجهل ويظهر".

قال **الإمام البخاري** -رَحِمَهَ الله- في أول كتاب الفرائض "قال **عقبة بن عامر** قبل الضانين -قال **البخاري**-رَحِمَهُ الله - يعني الذين يتكلمون بالظن ".

قال **الحافظ النووي** - رَحِمَهُ الله - مبيّنا هذا المعنى في مقدمة المجموع : "معناه تعلموا العلم من أهله المحققين الورعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلمون في العلم ببدر نفوسهم وظنونهم التي ليس لها مستند شرعي ".

وممّا جاء في هذا المقام ما أخرجه **ابن أبي شيبة** في المصنف أنّ **ابن الحنفية** قال في جنازة **عبد الله بن عباس:** "اليوم مات رباني العلم".

وجاء في تهذيب الكمال أنّ **ابن المسيب** - رَحِمَهُ الله - قال: شهد جنازة **زيد بن ثابت** -رَضِيَ الله تَعَالَى عنه- فلمّا ولي قبره قال **ابن عباس** -رَضِيَ الله تَعَالَى عنهما- :"من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم و الله لقد دفن اليوم علم كثير ".

فلمّا كان الأمر بهذه الصورة -أيّها الأحبة- صار السّلف على هذه الطريقة متوخين الحذر وألا يأخذوا العلم إلا عن أهله كما مر ، قال **الإمام ابن سيرين :** "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم " ، أخرجه الإمام مسلم في مقدمة الصحيح .

وهذه المقولة مأثور ة عن جمع من سلف هذه الأمّة أسندها عنهم **الإمام ابن حبان** في مقدمة المجروحين ففيها عن **زيد بن أسلم والحسن و الضحاك بن مزاحم وإبراهيم النخعي** في آخرين، **قال الإمام الخطيب** -رَحِمَهُ الله- معلقا على أثر أورده عن **الإمام شعبة** : " قال **الإمام شعبة** حدّثوا عن أهل الشرف فإنهم لا يكذبون ".

علّق **الخطيب** : "هذا كلّه بعد استقامة الطريقة وثبوت العدالة والسلامة من البدعة ، فأمّا من لم يكن على هذه الصفة فيجب العدول عنه واجتناب السّماع منه "، ثم أسند عن **أبي غسان الرازي** أنّه قال: "لو أنّ لرجل على رجل عشرة دراهم ثم جحدها لم يستطع الحصول عليها - قال- إلا بشاهدين عدلين - أليس كذلك؟ لابد في الشهادة من عدلين على الأموال- قال لا يستطيع أن

[1] البخاري (100) ، ومسلم (2674).

يستردها إلا بشاهدين عدلين فدين الله أحق أن يطلب عليه العدول "، قلت وهذه الكلمة التي قالها **أبوغسان** أخذها عن شيخه **بهد بن حكيم** فيما أخرجه **الإمام ابن حبان** في مقدمة المجروحين أن بهذا قال: " دين الله أحق أن يطلب له العدول " ، قال **الحافظ ابن الأثير** في مقدمة جامع الأصول لما تكلم عن مبحث العدالة: "ممّا يحتاج إليه طالب الحديث أن يبحث عن أحوال شيخه حتى يأخذ عنه -بعد ما يتحقق من إيمانه أو إيمانه وحسن عقيدته وأنّه ليس صاحب هوى ولا بدعة يدعوا الناس إليها "، ثم مثل ذلك بمثال عن علي - رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ- وقال : "كان على ذلك أثر الصحابة والتابعين وتابع التابعين -رَحْمَةُ الله عَليهم - وإنّ في الاقتداء بهم أسوة حسنة "، ونحن على الأثر.

وفي التعديل و التجريح **للباجي** ،أن الإمام **إبراهيم النخعي** قال : "كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الجل نظروا إلى صلاته وإلى هيئته وسمته ثم يروون عنه ".

وعند **الخطيب** في الجامع عنه أيضا : " كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وإلى صلاته وإلى حاله ثم يأخذوا عنه ".

وفي **أمال بن سمعون** عن **المغيرة** أنه قال : "كنّا إذا أتينا الرجل لنأخذ عنه نظرنا إلى صلاته وإلى سمته ثم أخذنا عنه ".

وفي الميزان **للذهبي** ، أنّ **الإمام شعبة** قال:" رأيت يحيى بن عبيد الله التيمي يصلي صلاة لا يقيمها فتركته".

الأمر -أيّها الإخوة- لم يقف عند هذا بل تعدى ،كانوا إذا رأو الرجل يجلس عند غير الرضي آخذوه بذلك ،هذا **محمد بن حميد الرازي** ،قال فيه **الإمام أحمد** :"حسن الحديث حسن المعرفة ما وجد عليه إلا صحبته **للشاذكوني**"، الشاذكوني كذاب يجلس عنده فابتلي به وصار يكذب **محمد بن حميد** كان ثقة ، لذلك قال **الحافظ الدارقطني**:" يتهم بالوضع و ما أحسن القول فيه إلا من لم يخبر حاله".

وأسند **الإمام مسلم** في مقدمة الصحيح عن **عبد الله بن المبارك** قال:"رأيت **روح بن غطيف** صاحب الدم قدر الدرهم وجلست إليه مجلسا فجعلت - **ابن المبارك الإمام الحافظ** يقول- "فجعلت استحي من أصحابي أن يروني جالسا معه كره حديثه"[1].

وفيه أيضا في مقدمة الصحيح **علي بن شقيق** قال: (سمعت **عبد الله بن المبارك** يقول :"على رؤوس الناس دعو حديث **عمر بن ثابت** فإنّه كان يسب السلف").

[1] مقدمة صحيح مسلم.

وفي ترجمة **إسماعيل بن موسى الفزاري** من السير أنّ **عبدان الأهوازي** قال: "أنكر علينا أبو بكر بن أبي شيبة أو هناد مضينا إلى إسماعيل بن موسى قال : "إيش عملتم عند ذاك الفاسق الذي يشتم السّلف لم تجلسون عنده ".

فالصّفاء والنّقاء في الأخذ والتلقي مطلب عند أئمة الحق وإن من سلف الأمّة -رَحِمَهُم الله- .

قال **الحافظ النووي** في مقدمة المجموع " من لم يصبر على ذل التعلم بقي عمره في عناية الجهل ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة و الدنيا " ، وكما قيل: ((من لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول زمانه)).

بل إنّ المتأمل فيما ذكر في تراجم أئمة السلف يجد عجبا من تفرغهم للعلم وصبرهم على تحمله و مضى شيئ من ذلك في كلمة الإمام الشافعي آنفة الذكر ولا بأس من الذكرى و التذكير ببعض تلك التراجم شحذا للهمم .

-فقد جاء في ترجمة **الإمام الشعبي** من التذكرة ،قيل له من أين لك هذا العلم كله ؟ قال -رَحِمَهُ الله- "بنفي الاعتماد و السير في البلاد و صبر كصبر الجماد ،وبكور كبكور الغراب".

-وفي المصنف **لابن أبي شيبة** ،أنّ **الإمام الشعبي** نفسه قال :"ما علمت أحدا من الناس كان أطلب للعلم في أفق من الآفاق من **مسروق** - **الإمام مسروق بن الأجذع** تلميذ وصاحب **ابن مسعود** -رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْه- وفيه أنّ **مسروقا** أعني في المصنف - رحل في حرف واحد - في حديث واحد - ليحمل هذا الحديث .

-ونقل **العسكري** -رَحِمَهُ الله- في الحث على طلب العلم أن **الخليل الفراهيدي** الإمام اللغوي الشهير كان يقول :" أثقل الساعات علي ساعة آكل فيها ".

-وهذا **الإمام الم ازني** صاحب **الشافعي** وتلميذه يقول : " قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسين مرة".

-وهذا الإمام **عبد الله بن محمد بن أبي بكر** فقيه العراق يقول فيه **الحافظ ابن رجب** في ذيل طبقات الحنابلة : "كان عارفا بأصول الدين ومعرفة المذهب و الخلاف وفي الحديث وبأسماء الرجال والتواريخ وباللغة العربية وغير ذلك وانتهت إليه معرفة الفقه بالعراق ومن محفوظاته في المذهب كتاب خرق والهداية **لأبي الخطاب** ،وذكر أنه طالع كتاب المغني ثلاث وعشرين مرة وكان يستحضر كثيرا منه أو أكثره ".

-وهذا **الإمام الصالح محمد بن أحمد بن قدامة** قال فيه **الحافظ ابن رجب** في ذيل الطبقات : " كتب بخطه كثيرا من ذلك الحلية **لأبي نعيم** وتفسير **البغوي** والمغني في الفقه لأخيه الشيخ **موفق الدين** والإبانة **لابن بطة** ،وكتب مصاحف كثيرة لأهله وكتب الخرق للناس والكل بغير أجرة وكان سريع الكتابة و ربما كتب في اليوم كراسين بالقطع الكبير ".

فانظر إلى هذه الهمة في التفرغ والطلب والصبر على التحصيل واسمع معي -بارك الله فيك -هذه القصة لعلها تشحذ الهمة .

-قال **الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم** في مقدمة الجرح: "سمعت أبي يقول أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت فيه على قدمي زيادة على ألف فرسخ -أقول ثلاثة أميال يعني خمسة كيلو كما يقال مشى ألف فرسخ يع ني خمسة آلاف كيلو- قال لم أزل أحصي حتى زاد على ألف فرسخ فتركته - ترك العد بعد الألف -قال أما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة وخرجت من البحرين إلى قرب مدينة صلى -جهة المغرب الأقصى - إلى مصر ماشيا ومن مصر إلى الرملة ماشيا ومن الرملة إلى بيت المقدس ماشيا ومن الرملة إلى عسقلان ومن الرملة إلى طبريا ومن طبريا إلى دمشق ومن دمشق إلى حمص و من حمص إلى أنطاكيا و من أنطاكيا إلى طرسوس ثم رجعت من طرسوس إلى حمص -لماذا رجع إلى حمص ؟- قال لأنه كان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان فسمعته ثم خرجت من حمص إلى بيسان ومن بيسان إلى الرقة ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ومن النيل إلى الكوفة كل ذلك ماشيا كل هذا في سفري الأول و أنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين خرجت من الري سنة ثلاث عشر وم ائتين ورجعت سنة إحدى وعشرين و م ائتين وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ورجعت سنة خمس وأربعين أقمت ثلاث سنوات ".

-وهذا **الإمام الحافظ القدوة محمد ابن إسحاق بن مندة** ،قال **الذهبي** عنه: " الإمام الحافظ الجوال محدث العصر ولد سنة 310 وعدت شيوخه الذين سمع منهم و أخذ عنهم ألف وسبعمائة شيخ ، ولمّا رجع من الرحلة الطويلة كانت كتبه عدة أحمال حتى قيل إنّها بلغت أربعين حملا وما بلغنا أن أحدا من هذه الأمة سمع ما سمع ولا جمع ما جمع ،وكان خاتمة الرحالين وفرد المكثرين مع الحفظ و المعرفة والصدق وكثرة التصنيف ، وأوّل ارتحاله كان قبل 330 ، قال الحاكم: " التقينا ببخارى سنة 361 ، وقد زاد ظاهرة ، ثم رجع إلى وطنه فاستوطن و تزوج ".

أقول يعني أن عمره كان كم 20 سنة ارتحل وعمره في العشرين ورجع إلى بلده وكان عمره خمس وستون سنة مدة هذه الرحلة 45 سنة فهل سمعت بمثل هذا من قبل ؟أو وقفت على مثل هذا قط ؟

هذا **الإمام أبو قلابة عبد الله بن زيد** كما في الجامع لأخلاق الراوي يقول: " أقمت بالمدينة ثلاثا مالي حاجة إلا رجل عنده حديث يقدم فأسمعه منه -فأسمع هذا الحديث منه- ".

يقول **الإمام ابن القيم** -أيّها الأحبة- قبل أن نختم هذه الرسالة -أعني الخامسة- : "العلم صناعة القلب وشغله فما لم يتفرغ لصناعته وشغله لم ينلها وله وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، وما لم تغلب لذة إدراكه للعلم وشهوته على لذة جسمه وشهوته لم ينل درجة العلم أبدا ،فإذا صارت شهوته في العلم و لذته في إدراكه رُجِيَ أن يكون من جملة أهله ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الأكل والشرب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ، ولذة الشر والظلم والفساد والعلو في الأرض لذة شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح للبدن إلا لذة العلم والإيمان فإنها تكمن بعد المفارقة -إلى أن قال- فإن تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هماً وغماً وألماً يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كريها إليه لكن يحمله عليه مداومة ذلك الغم و الهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبته والإقبال عليه والتنعم بذكره فهذه هي اللذة الحقيقية ".

***الرسالة السادسة -أيّها الإخوة- هي تتعلق بالتدرج في طلب العلم و اغتنام زهرة العمر :**

التدرج في طلب العلم من المسلمات -أيّها الأحبة- أن العمر قصير والعلم كثير ،قال **الإمام الشعبي** -رحمه الله- " العلم أكثر من أن يحصى فخذ من كل شيء أحسنه " ، لذا لا تجد أحدا من أهل العلم ينازع في هذا المسلك أعني مسلك التدرج والتروي في تحمل العلم وأخذه لأن التدرج -أيها الأحبة- هي الوسيلة الناجحة النافعة المثمرة لأخذ العلم و فهمه والعمل عليه بما دل عليه , و قد دل القرآن الكريم على هذه الوسيلة قال الله -جَل وَعَزّ- ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (106)** ﴾ [الإسراء: ١٠٦]" ، وقال -جَلَّ فِي عُلاه- ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)** ﴾ [الفرقان: ٣٢].

يقول **الحافظ الخطيب البغدادي** -رَحِمَهُ الله- في الفقيه والمتفقه : "ينبغي له "-أي لطالب العلم المبتدئ أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر – قال:" يأخذ قليلا قليلا حسبما يتحمله -حسبما يتحمله حفظه و يقرب من فهمه فإن الله –تَعَالَى- يقول ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32)** ﴾ [الفرقان: ٣٢] انتهى كلامه.

أقول إن الله -جَلَّ وَعَلا- يقول :﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (79) ﴾ [آل عمران: ٧٩].

-أخرج **البخاري** تعليقا أنّ **ابن عباس** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه- قال "﴿ رَبَّانِيِّينَ﴾: حكماء فقهاء" ويقال: الرباني الذي يربي على صغار العلم قبل كباره.

قال **الحافظ ابن حجر**:" المراد بصغار العلم :ما وضح من مسائله , و بكباره ما دق منها ".

وروى **الحافظ القاضي عياض** في الإلماع بإسناد صحيح عن **الإمام الزهري** -رَحِمَهُ الله- أنّه قال : "قال **لي يونس بن يزيد** :يا يونس لا تكابد العلم فإن العلم أودية فأيها أخ ذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه ولكن خذه مع الأيام والليالي ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة و لكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام ".

-وفي المصنف **لعبد الرزاق** عن **الإمام معمر بن راشد الأسدي** قال : "من أخذ العلم جملة ذهب عنه جملة أو ذهب منه جملة ".

ثم التدرج في أمرين :

- ❖ التدرج بين الفنون .
- ❖ والتدرج في الفن الواحد.

التدرج الذي يعنيه أهل العلم وهو التدرج بين الفنون فيقدم أهمها وفي الفن الواحد يتدرج الطالب ليفهم و ليعرف .

قال **الحافظ ابن عبد البر**:" طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها فمن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف -رَحِمَهُمُ الله- ومن تعدى سبيلهم عامدا ضل ،ومن تعداه مجتهدا زل" ، ثم قال :" فأوّل العلم حفظ كتاب الله -عَزَّ وَجَل- وتفهمه وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه ولا أقول إن حفظه كله فرض ولكن أقول إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالما -يعني يفتي الناس بالحلال و الحرام- ، قال فمن حفظه قبل بلوغه ثم تفرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان ذلك عونا كبيرا على مراده ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه يقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك وهذا أمر قريب على من قربه الله عليه "، طبعا هو -رَحِمَهُ اللهُ- يتكلم هنا عن عموم التلقي ولم يتكلم عن ماذا؟ : عن الترتيب وإنّما أشار إلى أنّه رتب ومنازل يجب أن تسلك ،قال: " ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله -عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام - فيها يصل الطالب إلى مراد الله -عزّ وَجَل- في كتابه وهي تفتح له أحكام

القرآن فتحا ومن طلب السنن فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ الذين جعلهم الله خزائن لعلم دينه وأمناء على سنن رسوله -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام- ".

الحقيقة أن صياغة التلقي وطريقة التلقي من أحسن من رأيت أنه صاغ هما **ابن خلدون** في المقدمة ،ابن خلدون في مقدمته صاغ صياغة جميلة في قواعد التلقي وأصول التعليم نذكر طرفا منها وتنظرونها في محلها قال : " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا قليلا قليلا يلقي عليه أولا -المعلم- مسائل كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب و يقرب له شرحها على سبيل الإجمال ويراعي في ذلك قوة عقله "-لأن الناس رتب عقولهم متفاوتة- قال: "واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن و عند ذلك -هذه المرحلة الأولى- عند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم -يعني معرفة- إلا أنّها جزئية ضعيفة وغايتها أنّها هيَّئته لفهم الفن و تحصيل مسائله ما أن تطرح عليه ابتدءا الخلاف والاختلاف والتفتيت والتقسيم إلا ذهب ذهنه وشرد وكان سببا ذلك في الملال ،إنّما ابتدءا يؤخذ الأمر على التروي شيئا فشيئا- قال :"ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان يخرج عن الإجمال يذكر له ما هناك من الاختلاف وجهه إلى أن ينتهي به إلى آخر الفن فتجود ملكته -التي أصقلت أولا-ثم يرجع به و قد شدى -بمعنى أخذ طرفا من العلوم والأدب و الفهم " ، فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا متعلقا إلا أوضحه وفتح له مقفله فخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما -رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له و يتيسر عليه بعضهم قد يكون وقاد الذهن ذكيا فهما فطنا يدرك الكلام ويعرف معاني الكلام ويفهم سريعا وعنده توق فقد يرتقي و قد يتخطى إحدى تلك الرتب - قال : " وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته يحصرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم " - ما يكتفون عند هذا - قال : "ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها " ، قال : " و يحسبون ذلك ورانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه عي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه ما يلقون عليه من غايات الفنون" -لأنه سيتكلم ويتوسع في اللغة والنحو وفي غير ذلك وفي الحديث وأصوله والفقه وأصوله وإلى آخره – "وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم في الجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية -يعني يفهم- ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالطة ذلك الفن تكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيطه هو بمسائل الفن فإذا ألقيت عليه ا لغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي و بعيد عن الاستعداد له كلّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه

فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله بل وتمادى في هجرانه وإنّما أتي ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه -نعم- الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدءا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيها من أوله إلى آخره و يحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ إلى غيرها -إلى أن قال- من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ألا يخلط -يعني المعلم- على المتعلم علمان معا فإنه حينئذٍ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى الآخر فيشتغلان معا و يستصعبان ويعود منهما بالخيبة وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر لتحصيله والله الموفق للصواب".

هذا كلام فيه شيء من الطول لكنه معلم ومفهم ومظهر أن التعليم على ثلاث تكرارات فالطالب يجب عليه أن يتنبه لهذا كلام **ابن خلدون** اختصره لك **العلامة السعدي** في كلمة أنا أركز عليها كثر الكلام في هذا الباب والبلدان مختلفة في العلوم والأخذ و التلقي -نعم - لكنها الأمر حالة تقريبية ، قال **العلامة السعدي** -رَحِمَهُ الله- و حسبك به خبيرا في بهجة قلوب الأبرار بعد أن تكلم عن العلم النافع قال : " والحالة التقريبية في تحصيل العلم النافع أن يجتهد الطالب طالب العلم في حفظ المختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه فإن تعذر عليه أو تعسر عليه حفظه لفظا فليكرره كثيرا متدبرا لمعانيه حتى تر سخ معانيه في قلبه ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح له -نعم- والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها صغارها و كبارها ومن ضيع الأصول حرم - ماذا حرم إيش ؟- حرم الوصول " ، قال : "فمن حرص على ما ذكرنا واستعان بالله أعانه في علمه وطريقه الذي سلكه ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة فاتت عليه الأوقات ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالتجربة والواقع يشهد بذلك فإن يسر الله له معلما يحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم تم له السبب الموصل إلى العلم ".

***الرسالة السابعة :المحافظة على الوقت .**

قلنا سابقا أن العلم كثير والعمر قصير فالواجب على المؤمن أن يحرص على تحصيل العلم النافع ويتأكد على المؤمن عموما أوعلى المسلم أن يحرص على وقته وعلى وجه الخصوص طالب العلم في جعل نصب عينيه قول الله -عز و جل- ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ**

فَارْغَبْ (8) ﴾[الشرح: ٧ - ٨] وأن يستحضر قول النبي -عليه الصلاة والسلام- **((لا تزولا قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع - ومنها عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه))** [1]

أخرجه الطبراني في الكبير والبزار من حديث معاذ والحديث له شواهد وهو صحيح شواهده.

فسؤالان عن الوقت فتنبه وكن على حذر والله الموعد .

أخرج **ابن أبي شيبة** في المصنف **وأبو نعيم في الحلية** عن **ابن مسعود** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- قال : "ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل العارية مئداة "

ذكر **الإمام البغوي** في شرح السنة عن **الإمام الحسن البصري** -رَحِمَهُ اللهُ- قال : "أدركت أقواما كل أحدهم أشح على عمره منه على درهمه " ،حرصه على الوقت .

يقول **الإمام ابن القيم** : " إضاعة الوقت أشد من الموت لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها ".

إذا يحتاج إلى ماذا ؟ إلى جهد واجتهاد وحرص .

قال **أبو هلال العسكري** في الحث :"آلات طالب العلم: الذهن الثاقب، زمان طويل، كتابة ،عمل كثير، معلم حاذق، شهوة وطبيعة -شهوة للع لم وحب لتحصيله وطبيعة -ماذا؟- طبيعة حسنة تعينه على تفهم" .

ممّا يدل على حرص السلف ما جاء في **ترجمة الأسود بن يزيد النخعي** قالوا: "إنّه كان يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين و كان ينام بين المغرب والعشاء ويختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال) ، لك أن تتخيل هل يمكن أن يظن أنه ضيع شيئا من وقته ؟ فلا تستغرب فإن **الأسود** خريج **عبد الله ابن مسعود** وهو شيخه وإمامه **قال ابن مسعود** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- كما في المصنف لابن **أبي شيبة** : " إنّ هذه القلوب أوعية فاملئوها بالقرآن أو فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره ".

هذا **الإمام الحافظ ابن جرير الطبري** -رَحِمَهُ الله- جاء في ترجم ته من تاريخ بغداد أنه مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة -يعني كتب ما يقارب أربعة و ثمانين و خمسمائة ألف ورقة، فلا تستغرب هذا عن **الإمام ابن جرير** فقد ذكر الأستاذ **محمد كرد** في كتابه كنوز الأجداد ذكر أن **الإمام ابن جرير** -رَحِمَهُ الله- ما أثر عنه أنه ضيع دقيقة من حياته في غير إفادة واستفادة وقال يوما لأصحابه :" أتنشطون لتفسير لقرآن " - يختبرهم- قالوا :"كم يكون قدره" ؟- يعني هل تنشطون لإملاء التفسير- قالوا : "كم يكون قدره ؟ "، قال: "30 ألف ورقة " ، قالوا: "هذا ممّا تفنى فيه الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو 3000 ورقة" -هذا الذي ترونه الآن

[1] المعجم الأوسط للطبراني (4700) والمعجم الكبير (11177)، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (493).

مطبوع هو هذا المختصر 3000 - ثمّ قال لهم :"هل تنشطون بتاريخ العالم من آدم إلى يومنا هذا؟"، قالوا:" كم يكون قدره؟ فذكر نحوا ممّا ذكر في التفسير فأجابوا بمثل ذلك ،فقال: "إنا لله ماتت الهمم ".

-جاء في ترجمة **الإمام الحافظ محمد بن إدريس الرازي أبو حاتم** من السير أنّ **أبا زُرعة الرازي** قال له : "يا أبا حاتم ما رأيت أحرص على طلب الحديث منك "، فقال له: "إنّ ابني **عبد الرحمن** لحريص"، فقال **أبو زرعة** : "من أشبه أباه فما ظلم "، قال **الإمام أحمد بن علي** أحد رواة الخبر وراوي القصة : سألت عبد الرحمن عن اتفاق كثرت السّماع له و سؤالا ته لأبيه - كيف حصلت؟- قال : "ربّما كان أبي يأكل وأقرأ عليه و يمشي وأقرأ عليه ويدخل الخلاء وأقرأ عليه -يعني الباب من الخارج - و يدخل البيت في طلب شيء و أقرأ عليه" ، شوف الحرص.

فلك أن تتأمّل هذا الحرص على هذه الأوقات ولك أن تتأمل ما سبق من قصة رحلة **الإمام أبي حاتم** في سبع سنوات تلك ،هل يمكن أن يدرس هذا بالكسل و التواني و الدعة و الراحة ؟، والله لا يمكن أن يحصل ، ولذا رفع الله من ذكرهم وخلّد ذكرهم .

***الرسالة الثامنة :-و هي قبل الأخيرة - العمل بالعلم .**

يقول **الإمام ابن القيم** -أيّها الأحبة- :" لو نفع العمل بلا علم لما ذ م الله -تَعَالَى سُبحَانَهُ- أحبار أهل الكتاب ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم الله –تَعَالَى - المنافقين "،العمل بغير ماذا؟ إخلاص والعلم بغير عمل لما ذم الله أحبار أهل الكتاب ، ويقول : " العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه " ، ويقول أيضا : " الإخلاص والتوحيد شجرة في القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة و لا ممنوعة فثمر ة التوحيد والإخلاص في الدنيا كذلك "، ويقول: " الطلب لقاح الإيمان فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح ، والخشية لقاح المحبة فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب النواهي، والصّبر لقاح اليقين فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين وصحة الاقتداء بالرسول -عليه الصلاة والسلام- لقاح الإخلاص فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به، والعمل لقاح العلم فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة ،وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئا ،والحلم لقاح العمل والاعتداد به والعمل لقاح العمل -كما قلنا- والحلم لقاح العلم فإذا اجتمعا حصلت السيادة في الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم ،وإذا انفرد أحدهما عن صاحبه فات العلم فإذا اجتمعا حصلت [...] الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم ،وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع بالعلم وفات الانتفاع " ،إلى أن قال: " ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد فالأمر جد مهم وليس بالأمر الهين ، فكما أن

طريق العلم سبيل إلى الجنة فترك العمل بالعلم مذموم صاحبه ،فأين يذهب العبد الذي قد علم من ربه ومولاه وكيف يجيب ربّه ومولاه إذا ما سئل: "ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين كيف سيجيب ؟،ماذا سيقول؟ ، فالأمر جد لا هزل فيه يقول الله -جَلَّ وَعَلَا- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) ﴾[الصف: ٢ – ٣]

وسبق معنا أن ذكرنا من كلام **الحافظ ابن رجب** أنه ذكر أن من دعاء النبي -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامَ- والحديث في مسلم **((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))**[1]،وخُلقه - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامَ - كان القرآن كما تقوله أمنا عائشة -رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهَا وَأَرْضَاهَا- .

قال **الإمام ابن عيينة** -رَحِمَهُ الله- كما في الحلية وفي الاقتضاء **للخطيب** : "العلم إن لم ينفعك ضرك" ، قال **الخطيب** معلقا يعني "إن لم ينفعه بأن يعمل به ضره بأن يكون حجة عليه".

و لهذا كان السّلف -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم- يحرصون كل الحرص على تطبيق ما علموا .

قال **الإمام الحسن** - رَحِمَهُ الله - : " كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره ويده".

ويقول **الإمام أحمد** : "صاحب الحديث عندنا من يستعمل الحديث ".

و قال **ابن عيينة** - رَحِمَهُ الله - : "كان الشاب إذا وقع في الحديث احتسبه أهله "،علق **الخطيب** مبيّنا المعنى قال : "يعني كان يجتهد في العبادة اجتهادا قطعه عن أهله فيحتسبونه عند ذلك ".

-وممّا جاء في في هذا المقام ما جاء في ترجمة **الإمام الضحاك بن مزاحم** أنه قال **للأجلح** كما في طبقات **ابن سعد**: "اعمل قبل ألا تستطيع أن تعمل " ، قال **الأجلح** : "ويكون هذا؟" ، قال : "أنا أريد أن أعمل اليوم فما أستطيع" ، لكبر سنه مع أن الإمام الضحاك جاء في ترجمته أنّه كان إذا أمسى بكى ،قيل له: "لما تبكي ؟"، قال :"لا أدري ما صعد اليوم من عملي".

فالأمر -أيّها الأخوة- شديد كما قلت والسّلف طبقو ا ذلك في أنفسهم بل و في غيرهم ،جاء عند **عبد الرزاق** في المصنف عن **إبراهيم النخعي** قال :" كانوا إذا رأوا الرجل لا يحسن الصّلاة علموه "، كانوا - وهذا من عملهم بالعلم.

وفي شذرات الذهب **لابن العماد** في ترجمة **محمد بن إبراهيم الصفدي** أن أحد أهل العلم كان يسمى **بشيخ المطاهر** - لما ؟- قال:" لأنّه نذر نفسه على أماكن الوضوء ويراقب الناس الذين يتوضئون يصوب هذا ويخطئ هذا ويقوم هذا حتى سمي بشيخ المطاهر" .

نعم لا تظن أن هذا من الجنون كما ينظر إليه الناس الآن لكن لأنّه يعلم أن وراء هذه العبادة عبادة مترتبة عليها فإن لم يحسن المرء الوضوء لم تصح منه الصّلاة.

[1] سبق تخريجه.

وجاء في ترجمة **الإمام صفوان ابن سليم المدني** وهو رأس في العلم و العمل وأنّه قالوا فيه :أنه نقب جبهته من كثرت السجود، وقيل: أنّه لو قيل له إن الساعة غدا ما كان أن يستطيع على مزيد عمل ما مان عنده مزيد عمل .

قال **الإمام أحمد** : "من خيار عباد الله يستنزل بذكره القطر " ، يعني إذا طلب ودعي و جيء إليه وطلب إليه أن يدعوا للناس و يستسقي بهم يستن ....

-وجاء في ترجمة **الإمام حماد بن سلمة** أن **الإمام عبد الرحمن بن مهدي** ، قال :" لو قيل **لحماد بن سلمة** إنّك تموت غدا ما قدر على أن يزيد على ما كان يعمل من شيء" .

قال **الذهبي** : "قلت كانت أوقاته معمرة بالتعبد والأوراد".

-وجاء في ترجمة **الإمام محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب** ، قال فيه **الحافظ الذهبي** : "شيخ الإسلام كان من أوعية العلم ثقة فاضلا قواما بالحق مهيبا " ، قال تلميذه **الواقدي** : "كان يصلي الليل أجمع ويتهجد في العبادة ولو قيل له إن القيامة تقوم غدا ما كان فيه مزيد من الاجتهاد ".

-وهذا **الإمام شعبة بن الحجاج الرئاسي** الإمام الشهير المشهور والذي ينظر الناس إليه فقط إلى أنه متشدد وشدته في الحق رفع الله قدره وأعلى مكانته هذا **الإمام شعبة** يقول فيه **الإمام يحيى** القطان : " كان شعبة من رق الناس يعطي السائل ما أمكنه ".

وقال **أبو قطن** : "كانت ثياب شعبة "كالتراب و كان كثير الصلاة سخيا"،

وقال **النضر بن شميل** : "ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَ- وددت أني وقاد حمام وأني لم أعرف الحديث" ، قال **الذهبي** معلقا : "كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلبه للعلم يخاف من مثل هذا يود أن ينجو كفافا ".

وآخر وصية أو آخر رسالة .

***الرسالة التاسعة: هي التقرب إلى الله -جل وعلا- بالفرائض والمحافظة عليها والإكثار من النوافل و الابتعاد عن المعاصي بل والفرار منها .**

من صفات المتقين الصالحين المصلحين الذين امتدحهم الله -جَلَّ وَعَز- في كتابه أنهم يسابقون بالخيرات والطاعات ، قال الله - جَلَّ وَعَز - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

وفي البخاري قوله -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام- :**((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ**

الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَ تَهُ))[1] .

فأعظم الربات -أيّها الأحبة- الفرائض ، المحافظة على الفرائض وعدم التفريط فيها بل والقيام بها على الوجه المطلوب شرعا ،يقول **الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي** -رَحِمَهُ اللهُ- في جامع العلوم و الحكم : "من عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخاءه عامله باللطف والإعانة في حال شدته".

يقول **الإمام ابن القيم** : "العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النواهي فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر وإلى اللطف عند النوازل وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له اللطف عند النوازل ،فإن كمل القيم بالأوامر ظا ه را وباطنا ناله اللطف ظاهرا وباطنا ،وإن قال بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن ".

بهذه النظرة القيام بأحكام الأوامر لأنّهم يحتاجون إلى الإعانة من الله للقيام بها ويرجون اللطف في النوازل بهذه النظرة الثاقبة اليقظة فاز القوم و سبقوا ، قيل **للإمام الحسن** : " سبقنا القوم على خيل دهم و نحن على حمر معقرة " ، مجرحة ، فقال :"إن كنت على الطريق أو على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم"، بس كن على الطريق ولو كانت ماذا؟ ، هذه الخيل فيها جراحات .

فالحصيف يشتري نفسه -أيّها الأحبة- ، فالسوق قائمة والثمن موجود والمتأمل كما قلت في سيرة سيد الخلق وإمامهم -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وأصحابه من بعده يجد في ذلك عجبا ، كان -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يقوم من الليل حتى تتورم قدماه، ثمّ يقول:**((أفلا أكون عبدا شكورا))**[2]، تقول أمنا **أم المؤمنين عائشة** -رضي الله تعالى عنها- كما في المصنف **لعبد الرزاق ((كان رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- شديد الإنصاب لجسده بالعبادة غير أنّه حين دخل في السن وثقل في اللحم كان أكثر ما يصلي وهو قاعد))**[3].

جاء في ترجمة **عبد الله بن عمر** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-، قال **الإمام سعيد بن المسيب** : "ما مات وما أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منه ".

جاء في الزهد **لعبد الله بن المبارك** وفي المصنف **لابن أبي شيبة** والحلية **لأبي نعيم** من طريق أبي ميسرة قال : " كان **عمر بن شرحبيل** إذا آوى إلى فراشه بكى ثم كان يقول - أو قال - ليت أمي لم تلدني ، قيل له لم ، قال : لأنا أخبرنا أنا واردوها و لم نخبر أنا صادروها - يشير إلى

---

[1] البخاري(6502).
[2] البخاري (1130)، مسلم (2821).
[3] مسند أحمد (24831) ، ومصنف عبد الرزاق (4092).

قوله –تَعَالَى- ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾ [مريم: ٧١ – ٧٢] ".

-قال **الإمام الأوزاعي** : "من أطال القيام بال ليل هون الله عليه وقوف يوم القيامة "،فهذا من اللطف الذي يطلبه أولائك الأمجاد -نعم- في مثل هذه المواقف.

-قال **الإمام أحمد** في **عطاء بن السائب** : " ثقة رجل صالح يختم القرآن كل ليلة ، وإن كانت السنة أقل ذلك -ماذا؟- في ثلاث".

-هذا **الإمام عروة بن الزبير** قال عنه ابنه **هشام بن عروة** : " مات و هو صائم) "، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- يقول : " من مات على شيء بعث عليه".

-هذا **الإمام سعيد بن المسيب** يقول: "ما أذن المؤذن ثلا ثين سنة إلا وأنا في المسجد "، قال **الذهبي**: إسناده ثابت .

-هذا **الإمام وكيع بن الجراح** يقول: " كان الأعمش قريبا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى ، وقال بعضهم :إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه ".

وبعد -أيّها الأحبة- فإن بعدهم عن المعاصي بَيّن ظاهر ، قال بعض السّلف وهو **ميمون ابن مهران** :" ذكر الله باللسان حسن ، و أعظم منه أن تذكر الله عند المعصية فتمسك عنها ".

و يقول **الحافظ بن القيم** -رَحِمَهُ اللهُ- :" الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل".

نظروا إلى هذه الأمور بهذه النظرة وخافوا على ما حصلوا من علم ، قال **ابن مسعود** -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- :" إنّي لأحسب الرجل ينسى العلم يتعلمه بالذنب يعمله ".

-قال **الإمام الحسن** : " نفوسكم مطاياكم فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم - جَلَّ وَعَزَ-".

-جاء في ترجمة **الإمام يحيى القطان** أن ابن دار قال : "حدثنا إمام أهل زمانه يحيى القطان واختلفت إليه عشرين سنة فما أظنه عصى الله قط ".

فالمرء الحصيف العاقل يتقي الله - جَلَّ وَعَزَ - في السر والعلانية فلا يكن ولي لله في العلانية وعدوّا له في السر، كما قاله **الإمام سلمة بن دينار الأعرج** -رَحِمَهُ اللهُ- .

وأختم ختم الله لنا ولكم بخير كلاما للإمام ابن القيم معددا نتائج المعصية :" إنّ من نتائجها قلة التوفيق وفساد الرأي وخفاء الحق وفساد القلب وخمول الذكر وإضاعة الوقت ومحق البركة في الرزق والعمر وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت وطول الهم الغم و ضنك المعيشة

كلها تتولد من المعصية و الغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء و الإحراق عن النار و أضدادها هذه تتولد عن الطاعة " .

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفعنا جميعا بما سمعنا وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين وأن يثبتنا جميعا على الإسلام والسنة إنّه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

ꕥ

[**الأسئلة**]:

السؤال(1) م اهي أهم الكتب الشرعية للمبتدئ ؟ ، ويشاركه سائل من الحضور ما هي أفضل الكتب في التفسير في علم مصطلح الحديث وفي أصول الفقه وفي آيات الأحكام وفي أحاديث الأحكام وفي النحو؟.

الجواب

أهمّ الكتب التي يجب أن يحصلها طالب العلم فيما يتعلق بتفسير كتاب الله -جَلَّ وَعَلا- وتفهمه هذا الكتاب آنف الذكر الذي ذكرنا وصفه عن **الإمام ابن جرير**-رَحِمَه اللهُ- لكن يجب أن يراعى الحال ، المبتدئ - نعم- يتناسب معه مالا يتناسب مع غيره ،سؤالهم عن الكتب للمبتدئين و إلا عام ؟- .

فإن من الكتب العظيمة للمبتدئ في التفسير أن يرتصحب معه وينظر ويكثر النظر في كتاب الشيخ **العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي** -رَحِمَهُ اللهَ- " تيسير الكريم المنان " ،فهذا كتاب جيد ومفيد ومختصر مبين للمعنى يدرك به الشاب معاني كتاب الله - جَلَّ وَعَز - والآيات التي يحفظها و يقرؤها ،ولا يكثر على نفسه ولا يشعب ولا يتشعب لأنه إن تشعب كثيرا فاته خير كثير ،فيلزم التدرج والتأمل .

فمن الكتب كما قلنا هذا ومن الكتب كتاب أعلى قليلا كتاب **الإمام الحافظ ابن كثير** في التفسير ونحوها من هذه الكتب تكون معه أيضا .

وأما ما يتعلق بالحديث ،فإنّ من أوائل ما يعتني به الطالب ابتدءا هذه الأربعين النووية صغيرة في حجمها كبيرة في معانيها أعني هذه الأحاديث ،حجم الكتاب لكنه يشتمل على أصول الإسلام ومعاني الأحكام وكذلك يرتقي بعدها في عمدة الأحكام وبعده البلوغ و هكذا - نعم - مع

النظر أيضا إن ارتقى و تقدم في العلم في كتب السنة الأخرى كالصحيحين والسنن وغير ذلك لكن هذه الرتبة عالية على المبتدئ ابتدءا.

وما يتعلق بالفقه فلا أزيد على ما ذكر الشيخ عبد الرحمن ونقلنا لكم عنه من أن يبتدئ في مختصر في فن من الفنون ولكن أن يكون على معلم حاذق هذه العلوم لا تدرس هكذا لا تطلب من الكتب لا بد على معلم حاذق يعينك ويدلك على الخير و يفهمك - نعم- لأن الدراسة على الكتب تضر ولا تنفع لا تنفع المبتدئ أبدا ، يحتاجها من تقدم في العلم و ارتقى كثيرا ،يراجع فيها وينظر فيها ويتأمل ويراجع ويحقق ويدقق ،صارت عنده الملكة التي يستطيع بها أن يتبين .

وما يتعلق بآيات الأحكام هناك كتب أيضا لكن هذا لا يتناسب ابتدءا مع المبتدئ "آيات الأحكام "، كتب أيضا ألفت في آيات الأحكام لكن ابتدءا المبتدئ لا يناسبه النظر فيها ، يكفيه النظر في التفسير المختصر .

أيضا في علوم الحديث أظن ، من المختصرات التي يبتدئ بهاحفظا وتفهما "المنظومة البيقونية" أوكتاب " التوضيح الأبهر" **للحافظ السخاوي** -رَحِمَهُ اللهَ- ونحو هذه الكتب المختصرة ثم يرتقي بعد ذلك .

على كل التفصيل في هذا يحتاج إلى أيضا شرح مطول .

السؤال(2) يقول شيخنا بارك الله فيكم و نفعنا بعلمكم ،أنا بدأت أطلب العلم هذه الأيام وعمري فوق الأربعين فبماذا تنصحني أثابك الله ؟

نسأل الله - جَلَّ وَعَز - له الثبات والإعانة فيخلص لله - جَلَّ وَعَز - و يجتهد و يثابر فمن أخلص واستعان بالله - جل وعز - أعانه وفهمه وألهمه وأرشده وأعانه على كل ما هو مستغلق عليه وليس ثمة ما يعيب فقد ذكر **الإمام البخاري** -رَحِمَهُ اللهَ- أنّ أكثر الصحابة أو كثير من الصحابة طلبوا العلم وهم كبار ،فلا ضير في هذا ،يستعين وعليه بما ذكرنا من جمل الوصايا ،يتدرج ويتعلم ويتفقه ولا حرج في هذا بل هذا خير ،ومن يرد الله به خيرا يفقه في الدين .

نسأل الله أن يثبتنا وإيّاه على الحق .